جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك

— ٦ —

أرى من الواجب في مطلع هذا المقال أن أوضّح مسألتين خفيتا على بعض القراء فجرت ألسنتهم بالعتب واللام .

المسألة الأولى ، هي الحكم بأن أحمد أمين ينظر إلى الأدب ، وإلى الوجود نظرة عامّية ؛ فقد ظن فريق من الناس أننا نقول بأنه من العوامّ في حدود الاصطلاح المألوف ، على معنى أنه بعيد عن الجوّ الذي يعيش فيه العلماء .

وذلك غير ما نريد . فأحمد أمين تلقى العلم في مدرسة القضاء الشرعي وظفر بإجازتها العالية ، وجلس للقضاء في المحاكم الشرعية بضع سنين . ثم اشتغل بالتدريس في الجامعة المصرية . فهو ليس عاميّا بالمعنى المعروف ، وإنما نريد أن نقول إن أحمد أمين على كثرة ما قرأ في الكتب وما سمع من العلماء لا يزال يفكر كما يفكر العوامّ .

ولتوضيح ذلك نقول: إن في أهل العلم من يكون أقل اطلاعاً من زملائه ، ولكنه قد يكون أقوى منهم في صحة الفهم وسلامة التمييز وقوة الإدراك ، فيكون محصوله القليل أجدى وأنفع ، ويكون له في أحكام العقل مجال

وفي مقابل ذلك نرى بعض العلماء المزودين بكثير من الثقافات ينظرون إلى الوجود نظرات عامية لا تمتاز بشيء عن نظرات العجائز من قعائد البيوت .

وأحمد أمين قليل الاطلاع في ميدان الأدب العربي بلا جدال، وهو مع قلة اطلاعه يحكم على الأدب أحكاماً عامية ، بعيدة كل البعد عن أحكام الخواصّ ، وقد أسلفنا الشواهد التي تؤيد رأينا فيه ، وسنسوق شواهد جديدة .

المسألة الثانية ، هي التعرض لأعماله المعاشية : فقد استنكر بعض القراء أن نقول إنه يكسب كيت وكيت ، وعدوها مسألة شخصية

ونقول إننا تعرضنا لذلك لغرضين : الأول هو النص على أن أحمد أمين مشغول عن الفكر والقلم بشواغل تصرفه عن التجويد في البحث والتفكير والإبداع ، والغرض الثاني هو تذكيره بأنه لا يجوز لمثله أن يعيب على أدباء العرب أن يشغلوا بمعاشهم وهو يقتل وقته بتدبير المعاش

ولو شئت لقلت إن الرجل الذي يدعو إلى هجر الأدب الجاهلي جملة واحدة بحجة أنه يشلّ التفكير هو نفسه الرجل الذي اشترك في تأليف الكتاب « المجمل » والكتاب « المفصل » والكتاب « المنتخب » بأجر معلوم تعرفه خزينة وزارة المعارف

فإن كان أحمد أمين صادقاً في حكمه على الأدب الجاهلي فكيف جاز عنده أن يشترك في تلك المؤلفات وفيها مكان ظاهر للأدب الجاهلي وهي خليقة بأن تشل عقول التلاميذ ؟ !

وكنت قلت إن الأستاذ أحمد أمين لا يستطيع أن يخدم الجامعة المصرية بالمجان ، وإنه يأخذ منها في كل شهر ستين ديناراً ، فكتب

(الكشوف — العدد : ١٧٥ الدكتور طه حسين يتحدث عن العروبة ...)

ترون من كل ذلك أيها الأستاذ أن مسألة الوحدة العربية ليست من القضايا التي يمكن أن تناقش وتعالج بالصناعة الكلامية والاندفاعات الارتجالية ... كما ترون أن الخطة التي سلكتموها في معالجة هذه القضية تجركم دائماً إلى مواقف تخالفون فيها الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ، كما جرّتكم في بعض الأحيان إلى مواقف تناقضون فيها أحاديثكم الذاتية أيضاً ...

إنكم تدعون المفكرين إلى بذل الجهود في سبيل « تجديد العقل العربي » ... وكم كنت أود أن أراكم تعملون بهذه الدعوة في المناقشات التي تخوضون فيها ، ولا سيما إذا كان موضوع المناقشة من الموضوعات الهامة مثل « فكرة العروبة » و « الوحدة العربية » ...

« برمانا » أبو خلدون

إلينا أحد المطلعين يقول إنه يأخذ من الجامعة فى كل شهر خمسة وثمانين لا ستين

فهل يجوز للرجل أن يأخذ هذا المبلغ بطمأنينة خلقية فى تدريس الأدب العربى وهو يعتقد أنه أدب لا يستحق العناية وأنه كان فى ماضيه الطويل أدب تسوُّل واستجداء ؟

وبعد توضيح هاتين المسألتين أرجع إلى هذا الرجل رجعة قاضية .

لقد دل على مبلغ فهمه للأدب حين ساق هذين البيتين فى مقاله الثالث فى جناية الأدب الجاهلى :

فما روضة زهراء طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهناً إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

فقد ضبط هذين البيتين على نحو ما يرى القارئ : فجعل الندى فى البيت الأول فاعلاً وجعل الجثجاث والعرار مفعولين ، وجعل « أوقدت » فى البيت الثانى مبنياً للمعلوم ونصب النار على المفعولية

فهل سمعتم قبل ذلك أن الندى يمج الزهر والنبات ؟

لو كان أحمد أمين يتأمل ما يقرأ لعرف أن الندى فى البيت الأول من هذين البيتين لا يمكن أن يكون فاعلاً ، ولعرف أن « أوقد » فى البيت الثانى فعل مبنى للمجهول ليجعل الشاعر معشوقته عقيلة تخدمها الوصائف

فهل يستطيع أحمد أمين أن ينكر أنه أخطأ فى ضبط هذين البيتين ؟

وهل يمكن لمن يثقون بكفايته الأدبية أن يتكروا أن لمثل هذا الفهم الخاطئ دلالة على مبلغ إدراكه لدقائق المعانى ؟

* * *

نترك هذا وننتقل إلى أحكامه على الشعر العربى فى العصر الإسلامى ، وهو يراه لم يتغير من حيث الموضوع فظل كما كان محصوراً فى المديح والهجاء والفخر والحماسة والغزل والرثاء

والظاهر أن أحمد أمين لم يدرس الشعر الأموى دراسة تمكنه من فهم الفروق بينه وبين الشعر الجاهلى ، فليس بصحيح أن الموضوعات لم تتغير ، وليس بصحيح أن الشعراء الأمويين كانوا يتناولون الأغراض الشعرية على نحو ما كان يتناولها الجاهليون

وإذا صح أن الشعر الجاهلى والإسلامى متحدان فى الموضوعات فهناك فرق ظاهر جداً بين العصرين فى تصور تلك الموضوعات

فالغزل فى العصر الأموى فنٌّ جديد لا يعرفه العصر الجاهلى ، وهل يتصور أديب أن أشعار عمر بن أبى ربيعة كانت لها سوابق عند الجاهلية ؟

هل يتصور أديب أن تائية كثيّر فى أغراضها ومراميها كانت لها نظائر فى الشعر الجاهلى ؟

وهل يصح لأديب أن يقول بأن غزليات العرجى وجميل والحارث بن خالد كانت لها أشباه قبل العصر الإسلامى ؟

إن الأمويين تغزلوا كما تغزل الجاهليون ، ولكنهم تفردوا بابتكار فن جديد هو القصص الغرامى ، فهل فطن لذلك أحمد أمين؟

وهل يمكن نكران ما وصل إليه الأمويون من الرقة والظرف فى النسيب ؟

أليس فيهم الذى يقول :

إن لى عند كل نفحة بستا ن من الورد أو من الياسمينا
نظرةً والتفاتةً أترجّى أن تكونى حلت فيما يلينا

أليس فيهم الذى يقول :

يا أم عمران ما زالت وما برحت بنا الصبابة حتى مسّنا الشفقُ
القلب تاق إليكم كى يلاقيكم كما يتوق إلى منجاته الغَرق
تعطيك شيئاً قليلاً وهى خائفة كما يمس بظهر الحية الفَرق

أليس فيهم الذى يقول :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

أليس فيهم الذى يقول :

ولو سلك الناس فى جانب من الأرض واعتزلت جانبا
لميتُ طِيبَها إننى أرى حبها العجب العاجبا

أليس فيهم الذى يقول :

وإنى لأستحييك حتى كأنما علىّ بظهر الغيب منك رقيب
ولو أننى أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب علىّ ذنوب

إن تفصيل ما امتاز به شعراء العصر الأموى فى النسيب يحتاج إلى كتاب خاص سيؤلفه أحمد أمين يوم يعرف أن الأدب لا يكال بمكيال ولا ينظر إليه بالعد والإحصاء

إن من أعجب العجب أن يقال إن شعراء الأمويين لم يبتكروا شيئاً فى التشبيب ، وهم الذين أمدوا لغة العرب بثروة وجدانية ستعيش ما عاشت لغة القرآن

ألا يكفى أن يكون العصر الأموى قد ابتكر الاستشهاد فى الحب ؟

ألا يكفى أن يكون ذلك العصر هو الذى خلق شخصية مجنون ليلى ، وهى شخصية شرّق سحرها وغرّب ، فكانت لها أصداء عند الشعراء من أهل الشرق وأهل الغرب ؟

ألا يكفى أن يكون العصر الأموى هو الذى فهم أن الحج من المعارض الدولية للصباحة والملاحة والجمال ؟

ألا يكفى أن يكون شعراء العصر الأموى هم الذين أذاعوا بين الناس فتنة الهيام بأسرار الوجود ؟

* * *

ثم ماذا ؟

ثم جهل الأستاذ أحمد أمين أن العصر الأموى هو العصر الذى تفرد بإجادة الأراجيز ، ولكن هل فكر أحمد أمين فى الأراجيز الأموية ؟

الحق أن العصر الأموى يحتاج إلى أدباء عظام يسجلون فضله على اللغة العربية ، ففى ذلك العصر ظهر الشعر السياسى ، وهو فن من الأدب يختلف عن التعصب للقبيلة كل الاختلاف ، وله مزايا وخصائص تنتظر أديباً له نظرة خاصية لا عامية

فمتى تعرف كلية الآداب ذلك الأديب ؟

إن من العار أن يقول أستاذ من كلية الآداب بأن الأدب فى العصر الأموى ليس إلا صورة من الأدب فى العصر الجاهلى

وهل يستطيع إنسان أن يقول بأن الكميت بن زيد الأسدى كان له نظير بين شعراء الجاهلية ؟

إن العصر الأموى ينتظر أديباً يفهم أنه كان صلة الوصل بين العصر الجاهلى والعصر العباسى ، ويدرك أنه تحرر كل التحرر من العقلية الجاهلية

فمتى تعرف كلية الآداب ذلك الأديب ؟

إن عميد كلية الآداب اليوم هو الأستاذ محمد شفيق غربال ، وهو مؤرخ جليل يفهم أن دراسة تاريخ القرون الوسطى أمر واجب ، لأن ذلك التاريخ كان الصلة بين القديم والحديث ، فهل نستطيع أن نشير عليه بأن ينشئ فى كلية الآداب كرسيا للعصر الأموى الذى جهله أحمد أمين ؟

ليت ، ثم ليت ! !

* * *

إن المسافة بين العصر الجاهلى والعصر العباسى طويلة جداً ، لأنها تقع فى نحو خمسين ومئة سنة ، وهى المدة التى انتظمت عصر النبوة وعصر الخلفاء وعصر الأمويين ، وفى تلك المدة كانت الشخصية العربية هى الشخصية التى تهدد ممالك الأرض ، والتى تسنّ شرائع الفتوّة وقوانين المجد ، والتى تلوّن العالم بألوان مختلفات ، والتى مكنت العرب من أن يكون لهم صوت مسموع فى أقطار المشرق والمغرب

فهل يُعقل أن يكون أدب العرب فى ذلك العهد صورة ثانية من أدبهم فى أيام الجاهلية ؟

ومن الذى يصدق أن الشعراء المسلمين كانوا يتهاجون على نحو ما كان يصنع الجاهليون ؟

وهل خطر ببال أحمد أمين أن العصبية السياسية فى العصر الإسلامى كانت لها ألوان لم يعرفها شعراء القبائل فى الجاهلية ؟

هل فكّر فى تحديد الخصائص الشعرية للمدح والهجاء فى العصر الأموى ؟

وهل تنبه إلى ما ابتكره الشعراء الأمويون حين أوقدوا نار العصبية الجاهلية ؟

يعزّ علىّ والله أن يقع فى هذه الأخطاء أستاذ فاضل من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية ، وهى اليوم معهد عظيم يحج إليه طلبة العلم من أقطار الشرق

يعزّ علىّ أن يكون فى رجال الجامعة المصرية من يفهم أن العصر الإسلامى صورة من العصر الجاهلى فى التفكير ، وطرائق التعبير مع أن ذلك مستحيل

وهل يتصور عاقل أن خطب علىّ بن أبى طالب صورة من خطب أكثم بن صيفى مثلاً ؟

هل يقول مفكر بأن رسائل عبد الحميد صورة مكررة لما كان يكتب الجاهليون ؟

وهل يمكن القول بأن معاوية كان يكتب بأسلوب عمر بن الخطاب ؟

إن التطور شريعة طبيعية يا صديقي ، فكيف تتوهم أن يكون العرب خرجوا وحدهم على تلك الشريعة ؟

إن العرب في أدبهم وتصورهم وعقليتهم قد انتقلوا من حال إلى أحوال ، وإن غاب ذلك عن فطنتك الواعية

وأين أنت من القصص الرائع الذي عرفته المساجد في العصر الأموي ؟

أين أنت من الشعر الرقيق الذي ابتكره الأمويون في وصف مجالس الأنس والشراب ؟

وهل تعرف يا حضرة الفاضل أن العصر الأموي ظلم أقبح الظلم حين اعتدى عليه خلفاء بني العباس بالمحو والتبديل ؟

هل مرّ في خاطرك أن العصر الأموي رُزِيء بمؤامرة سياسية حرمت تاريخه الأدبي من نعمة الوجود ؟

* * *

ثم ماذا ؟

ثم يتحذلق الأستاذ أحمد أمين فيقرر أن الخضوع للأوزان الجاهلية والقوافي الجاهلية جنى علينا جنايات كبرى، لأنه «حرمنا من الملاحم الطويلة التي كانت عند الأمم الأخرى وحرمنا من القصص الطويلة الممتعة »

وهذا الحكم يشهد بأن أحمد أمين يجهل طبيعة الأمة العربية بعض الجهل ، ويجهل طبائع الأمم الأخرى كل الجهل

إن أحمد أمين لا يعرف أن العرب ليس في طبيعتهم أن يأنسوا بالمنظومات المطولة في القصص والتاريخ ، ومن يتوهم أن العرب كان يجب عليهم أن يسلكوا في الشعر مسالك اليونان ، وذلك خطأ فظيع

إن عبقرية العرب ليست في القصص ، وإنما عبقرية العرب في الثناء والتعبير عن الأنفاس الروحية . وفي بلاد العرب نشأت الديانة الموسوية والديانة العيسوية والديانة المحمدية، وفي بلاد العرب نشأت أحاديث القلب والوجدان، وهم بلا جدال أصدق من تحدث عن الأرواح والقلوب

فإن امتازت لغات الشرق والغرب بالمنظومات الطويلة في القصص والتاريخ فقد امتازت لغة العرب بأكرم أثر عرفه الوجود وهو القرآن ، وهو حجة اللغة العربية يوم يقوم التفاخر بين اللغات بالأحساب

* * *

وإلى الأستاذ الجسر أوجه الكلمة الآتية :

أنت تعجب أيها السيد من أن تمنح أحمد أمين « قدرة الجناية على الأدب العربي » وأجيب بأن أحمد أمين ليس من النكرات حتى تتركه يتحذلق كيف شاء . إن أحمد أمين أستاذ بكلية الآداب يا حضرة السيد ، وكلية الآداب من أكبر معاهدنا العالية ، وما يصدر عن أساتذتها الأفاضل قد يتلقاه أكثر الناشئين بالقبول

وما الذي تخشاه من منح أحمد أمين ما لا يستحق ؟

إن كان هجومنا عليه يعطيه فرصة جديدة من فرص الشهرة فلا بأس ، فهو صديق عزيز ، والتنويه بشأنه من أوجب الفروض

المهم « يا حضرة السيد » أن يعرف أحمد أمين أن في مصر رقابة أدبية تزجر المتطاولين على ماضي الأدب العربي وتصرفهم عن اللجاج فيما لا يفيد

ونحن لا نحارب أحمد أمين بالذات ، وإنما نحارب الآراء التي نقلها نقلاً عن خصوم اللغة العربية ، وسنرى في المباحث الآتية ما يشفي صدور قوم مؤمنين

« الحديث شجون »

زكي مبارك